الفصل السابع
الكتب والمكتبات البيزنطية

يعدُّ التاريخ البيزنطي ـ من وجوه كثيرة ـ امتداداً للتاريخ الروماني. ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية هي، أساساً، القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية الذي يضم شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى وسورية ومصر وشمالي إفريقيا. ولقد انهار القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية الذي عاصمته روما تحت ضربات البرابرة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، على حين نجا القسم الشرقي من هذا المصير وأصبح مقراً ومستودعاً للتراث اليوناني الروماني. وتفاعل هذا التراث مع الحضارة الشرقية، ونتج من هذا التفاعل التراث البيزنطي. ويسمي العرب المسلمون البيزنطيين باسم الروم. وكانت عاصمة هذه الإمبراطورية القسطنطينية التي هي إستانبول الحالية والتي شيدها في القرن الرابع ميلادي الامبراطور قسطنطين الكبير على أنقاض مستعمرة يونانية قديمة اسمها بيزانس، وهي التي أعطت اسمها للإمبراطورية. وقد تعرضت هذه الإمبراطورية لهزات عنيفة من الشرق والغرب والشمال والجنوب. فقد دأبت شعوب البلغار والأفار من الشمال والغرب على مهاجمة عاصمة الإمبراطورية حتى وصلوا إلى أسوارها. كذلك هددها الفرس من الشرق ونشبت بين الطرفين حروب كثيرة وطاحنة، وكان آخرها تلك التي نشبت في أوائل القرن السابع الميلادي قبيل التحرير الإسلامي لسوريا وبلاد الرافدين ومصر. ثم تلقت هذه الإمبراطورية ضربة هائلة بظهور الإسلام الذي تمكن أتباعه أن يحرروا أقاليم سورية ومصر وشمالي إفريقيا بكامله من نفوذها وأن ينشروا الإسلام فيها. وظلت الحروب مستمرة بين الطرفين طوال تاريخهما. وظهر السلاجقة الأتراك في القرن الحادي عشر وبدؤوا زحفهم السكني على الأناضول وهزموا الإمبراطورية أكثر من مرة وبدؤوا الاستقرار في الأناضول. كذلك هاجم الصليبيون الزاحفون على بلاد الشام القسطنطينية واحتلوها في مفتتح القرن الثالث عشر. ثم استرد الصليبيون عاصمتهم واستمروا في الوجود حتى سنة ١٤٥٣م عندما احتل محمد الفاتح العثماني القسطنطينية وأنهى الوجود الرومي البيزنطي.

وكما سبق أن ذكرنا فقد سميت بيزنطة نسبة إلى بيزانس وهي مستعمرة يونانية قديمة كانت موجودة على البر الأوروبي على مضيق البوسفور. وقد أسس على أنقاضها الإمبراطور قسطنطين مدينة أعطاها اسمه هي القسطنطينية وكان ذلك حوالي ٣٣٠ م وجعلها عاصمة له. وقد أصبحت من ثم عاصمة الإمبراطورية الشرقية أكثر من ألف عام. هذا وإن الحضارة البيزنطية متأثرة باليونان أكثر من تأثرها بالرومان، ومتأثرة بالشرق أكثر من تأثرها بالغرب، وتنبع أهميتها في تاريخ الحضارات من الدور الذي لعبته في البلقان وفي روسيا. إذ أنها (أي بيزنطة) هي التي أدخلت الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي إلى كل من البلقان وروسيا، وصبغت الإقليمين بالمؤثرات البيزنطية ـ اليونانية الممزوجة بالتأثيرات الشرقية والديانة المسيحية الشرقية. كذلك حفظت بيزنطة قسماً مهماً من التراث الكلاسيكي [اليوناني ـ اللاتيني] في مكتباتها وأديرتها. فقد وجدت نسخ من مؤلفات اليونان القدامى طريقها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى أوروبا ـ وخاصة إلى إيطاليا ـ وساهمت في ظهور عصر النهضة.

أسس الإمبراطور قسطنطين في عاصمته التي بناها مكتبة إمبراطورية، وأوفد الوكلاء يجوبون العالم المسيحي بحثاً عن الكتب المسيحية لشرائها ووضعها في المكتبة. ذلك أن الإمبراطور اعتنق المسيحية وحاول جعلها دين الدولة الرسمي، واهتم بنشرها وجمع تراثها. ولكن يبدو أن نمو هذه المكتبة كان بطيئاً إذ لم يوجد فيها سنة ٣٣٧م عندما توفي الإمبراطور سوى سبعة آلاف مجلد. وتابع خلفاؤه الاهتمام بها. ولكن حدث بعد فترة أن صعد إلى عرش الإمبراطورية إمبراطور ترك المسيحية ورجع إلى الوثنية وهو جوليان المرتد الذي أحرق قسماً من محتويات مكتبة القسطنطينية الدينية، وأحيى الآداب الكلاسيكية الوثنية وأسس مكتبة ضخمة في أنطاكية خصصها للآداب الوثنية، وكان ذلك سنة ٣٦٢م.

ولكن عمر جوليان لم يطل وزال كل أثر بوفاته واعتنق الأباطرة التالون المسيحية وجعلوها دين الدولة الرسمي والوحيد وأبطلوا ما عداها من الديانات، واهتموا بمكتبة القسطنطينية الإمبراطورية حتى وصل عدد كتبها إلى أكثر من مائة ألف مجلد أغلبها كتب كراس، وبعضها على شكل ملفات.

كذلك أسس في القسطنطينية أكادمية للدراسات الفلسفية العليا زمن ثيودوسيوس الثاني واستمرت مزدهرة عدداً من القرون، ولكنها اضطهدت زمن ليو الإيزوري (٧١٧–٧٤١م) الذي شن حرباً لا هوادة بها على عبادة الصور والتماثيل والإيقونات. فقد

دمر عدد كبير من الكتب المخطوطة التي تحوي صوراً دينية. ولقد أغلقت الأكاديمية أبوابها أواخر القرن الثامن ولم يبق في المكتبة الإمبراطورية أكثر من ثلاثين ألف مجلد إلا بقليل.

يعد عهد جوستنيان (٥٢٧–٥٦٥) مهماً في تاريخ المكتبات وذلك من أجل عملين مهمين ارتبطا باسمه. أولهما أنه أمر بإغلاق آخر مدرسة فلسفية كانت موجودة في أثينا سنة ٥٢٩م، ذلك أنه اعتبر تعاليمها تخالف تعاليم الدين المسيحي مما أدى إلى تفرق أساتذتها في الأقطار وانتقال قسم منهم إلى بلاد الفرس، حيث وجدوا لهم ملجأ في مدن الجزيرة السورية مثل الرها وحران ونصيبين. كذلك حمل هؤلاء العلماء معهم قسماً مهماً من كتبهم مما أدى إلى إغناء مكتبات سورية بهذا التراث الهيليني الروماني.

أما الأمر الثاني الذي ارتبط باسم جوستنيان وخلد ذكره فهو أمره بجمع وتقنين القانون الروماني؛ فقد أوجد لهذه الغاية لجنة عليا درست مخلفات القوانين الرومانية من أقدم العصور حتى عهد جستنيان، وقد أصدرت اللجنة ما عرف باسم «**مجموعة الحقوق المدنية**»، التي هي تلخيص وجمع وشرح وذيول للقوانين السابقة. وهي أساس جميع القوانين المدنية للعالم الغربي في العصر الوسيط والعصور الحديثة. ولقد تمركز حول مجموعة الحقوق المدنية هذه مدرسة للحقوق مهمتها دراسة هذه القوانين وشرحها والتعليق عليها وتدريسها للطلاب. وقد تطورت هذه المدرسة حتى أصبحت جامعة وألحقت بها مكتبة متخصصة مهمتها تزويد الطلاب بالكتب التي يحتاجونها من أجل إتمام دراساتهم.

كذلك وجد مكتبة ثالثة في القسطنطينية عدا عن المكتبة الإمبراطورية ومكتبة جامعة الحقوق، ونعني بذلك مكتبة البطريرك، وهو رأس الكنيسة المسيحية الشرقية. وقد اختلف حجمها والاهتمام بها حسب العصور وحسب الأشخاص. وقد أسسها قسطنطين الكبير، وغذاها البطاركة مدى العصور بالكتب ذات الصبغة الدينية وذلك من أجل تثقيف وتدريب رجال الدين.

ولقد ازدهرت في الإمبراطورية البيزنطية حياة الأديرة حتى في زمن أبكر من ازدهارها في الغرب. فقد تأسست الأديرة في آسيا الصغرى وبلاد اليونان قبل سنة ٥٠٠م وكان لها قوانينها الخاصة التي تشجع على الدراسة والتحصيل. وتأسست في القرن التاسع أديرة تصر قوانينها على إيجاد مكتبة وعلى تعلم النسخ ووضعت القواعد الناظمة لذلك. وأشهر

هذه الأديرة دير ستوديون قرب القسطنطينية. وهذه الأديرة مهمة لغنى مكتباتها بالأعمال الدينية التي وصل بعضها سالماً. وعلى الرغم أن غالبية الأعمال أعمال دينية إلا أنه وجد أعمال كلاسيكية أدبية وحتى علمية وطبية.

ولقد كانت مكتبات هذه الأديرة مورداً لا يثمن للكشوف الأثرية التي قام بها هواة جمع المخطوطات في عصر النهضة الأوروبية الحديثة. ومن بين هذه الكشوف ما قام به العالم الألماني تيشندورف في دير سانت كاترين عام ١٨٤٤م من إنقاذ ثلاث وأربعين ورقة من نسخة العهد القديم اليوناني من يد رهبان الدير بعد أن كانوا اعتزموا إحراقها، ولا تزال محفوظة في مكتبة جامعة لايبزيغ حتى اليوم. وقد عثر العالم نفسه بعد عدة سنوات على جزء آخر من المخطوط، ثم عثر على نسخة كاملة من العهد الجديد وقد قدمها هدية إلى قيصر روسيا آنذاك. وهذه النسخة الشهيرة من الإنجيل معروفة باسم «مخطوط سيناء». وهو يعد أيضاً أقدم مخطوط إغريقي من القرن الرابع م. وهو الآن محفوظ في مكتبة المتحف البريطاني بلندن.

لقد شهدت الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٠ و١١٠٠م نهضة في التأليف في بيزنطة ووجد بها مؤلفون كثيرون. على الرغم من أن أغلب أعمالهم تلخيص لأعمال من سبقهم. ولعل أشهر هؤلاء بطريرك القسطنطينية فوتيوس الذي لخص في كتابه «المكتبة» حوالي ٢٨٠ مؤلفاً لمؤلفين قدماء. وعلى الرغم من أن أغلبها ذو صبغة دينية إلا أن فيها بعض الأعمال الأدبية والتاريخية وحتى الفنية. وتدل هذه الكتب الملخصة على ذوق رفيع في انتقاء الكتب وتدل على غنى المكتبة التي حوت مثل هذه الكتب. ولقد حوت أغلب المدن الرئيسية في الإمبراطورية البيزنطية مكتبات مهمة في مختلف الأزمان وذلك في الأديرة والمدارس والكنائس. ولقد تراوح الاهتمام بالمكتبات في الإمبراطورية بين مد وجزر حسب الأوضاع والظروف والازدهار الاقتصادي ووجود الحكام المتنورين. وقد ورد ذكر لوجود مكتبات مهمة في مدن قيصرية وبيروت وسالونيك وأثينا وغيرها. وعندما اجتاح الصليبيون البلقان في أواخر القرن الثاني عشر نهبوا كل شيء وصل إلى أيديهم ومن جملته المخطوطات ونقلوها إلى أوروبا. ولعلهم أول من افتتح حركة نقل المخطوطات اليونانية من الشرق إلى الغرب.

كذلك امتلك عظماء البيزنطيين وأغنياؤهم مكتبات خاصة بهم. فقد كان لأغلب الأباطرة مكتبات خاصة بهم. وهناك أخبار تذكر أن جميع أساتذة الأكاديمية وعددهم ٢٨

أستاذاً كان عندهم مكتبات خاصة. كذلك وضع تريبونيان الحمصي الذي رأس اللجنة الحقوقية لصياغة القوانين مكتبته الحقوقية الخاصة والحاوية على ألفي مجلد تحت تصرف أعضاء اللجنة.

ولقد انتشر نفوذ بيزنطة وإشعاعها خارج حدودها عدداً من المرات خلال تاريخها الطويل. فقد حصل شارلمان المشهور على نسخ من الكتب من مكتبة القسطنطينية الإمبراطورية أضافها إلى مكتبة القصر في عاصمته آخن. كذلك استعارت مكتبات الأديرة في أرمينيا نسخاً كثيرة من كتب دينية من القسطنطينية .

ولقد حصلت إمبراطورة الصرب إليزابيث في القرن الثالث عشر على مكتبة يونانية من القسطنطينية. ولسوء الحظ فإن حضارة بيزنطة التي ظلت مزدهرة فترة طويلة من الزمن بدأت بالانحطاط بعد سنة ١٢٠٠م. ولقد افتتح النورمانديون عصر الانحطاط بغزوهم البلقان في أواخر القرن الثاني عشر. وعندما احتل الصليبيون القسطنطينية سنة ١٢٠٤م دمروا تدميراً شبه كامل تلك المدينة الفاخرة، وقد نهبت المكتبات نهباً تاماً ودمروا القسم الأكبر من محتوياتها، وإن يكن بعض المهاجمين أدركوا أن مثل هذه المخطوطات قد تكون ذات قيمة فاحتفظوا بها وباعوها لتجار الكتب الإيطاليين بثمن بخس، وهؤلاء ربحوا منها الأرباح الطائلة.

ولما استعاد البيزنطيون مدينتهم سنة ١٢٦١م حاولوا تعمير ما تهدم وتعويض ما فات، ولكن ذلك لم يكن يعني شيئاً ذا غناء. ذلك أن الأعداء أحاطوا بها من كل جانب، أضف إلى ذلك أن الانقسامات الدينية قد مزقت الدولة والشعب وبدأت تفقد بالتدريج أقاليمها حتى إذا أهل القرن الخامس عشر لم يبق من تلك الإمبراطورية سوى رقعة ضيقة من الأرض تحيط بالقسطنطينية .

وأخيراً أتى السلطان العثماني محمد الفاتح فأنهى حياة هذه الإمبراطورية سنة ١٤٥٣م عندما احتل القسطنطينية. ولقد أمن السلطان السكان على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم. وبعد فترة نشأت تجارة للمخطوطات كان عمادها تجار البندقية الذين استأنفوا علاقاتهم التجارية مع الدولة العثمانية . وانتقل بهذه الطريقة عدد كبير من المؤلفات الكلاسيكية إلى الغرب، وكان لها دور هام في البعث الذي حصل في أوروبا بعيد ذلك والذي يعرف باسم النهضة Renaissance .

إن أهمية بيزنطة للعالم الغربي لا تنبع فقط من نتاجها في حقل الأدب والفن، وإنما تنبع أيضاً من أنها حفظت إبان القرون الوسطى المظلمة في الغرب قسماً مهماً من التراث الكلاسيكي اليوناني الروماني في وقت فقد كلياً تقريباً من أوروبا . ويمكن القول أن ما نعرفه الآن عن التراث اليوناني أتى نصفه من نسخ كانت موجودة لدى بيزنطة. ولقد وصل انتقال المخطوطات من الشرق والغرب ذروته خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكانت المخطوطات اليونانية لدى بعض التجار أربح وأثمن مادة تجارية يمكن أن يتاجر بها. ولقد أثارت هذه المخطوطات وأحيت الاهتمام بالآداب اليونانية والفلسفة والتاريخ وهو ما عرف باسم النهضة كما ذكرنا سابقاً. لذا يمكن القول أن انحطاط بيزنطة كان السبب الذي تزامن مع نهاية القرون الوسطى وولادة عصر النهضة في أوروبا.

obeikandl.com